وقف مركز مكة العالمي للهداية القرآنية
جمعية القلم للدراسات والأبحاث
مؤتمر
هدايات القرآن في بناء الإنسان

عنوان البحث:

المواطنة ترسيخ لقيم التعايش السلمي وثقافة الاختلاف في ظلّ التعددية الدينية: (قراءة مقاصدية لصحيفة المدينة)

اسم الباحث/ـة

أ.د/ خالد الطرودي

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة:

المواطنة، والتعايش السلمي، ومدنية الدولة، والتعددية الدينية، وثقافة الاختلاف، من المصطلحات المأخوذة من المدرسة الغربية لا نجد لها أصلاً لغوياً عربيا على المستوى النظري بالرغم من أنها من المفاهيم المذكورة داخل سياقات النص القرآني وهداياته، والسنة النبوية المطهرة وإرشاداتها. إلا أن هذه المصطلحات تضمنت خاصية رئيسية تكمن في الحرص على تطبيق واقعي وعملي لمفهوم المواطنة في الإسلام وترسيخ قيمها المتعددة، والأنموذج الحقيقي للتعايش السلمي بين أصحابها لاستعابها الثقافات الدينية المتعددة مع احتفاظ كل بخصائصه العقدية.

إن الدارس لصحيفة المدينة وما تحتويه من أبعاد تشريعية وضوابط قانونية وأخلاقية يجد لهذه المصطلحات الحضور المعنوي الكامل في أكثر الظواهر الحياتية التي لها علاقة مباشرة بنص الصحيفة، إلا أنها تحتاج اليوم الى إعادة قراءتها قراءة مقاصدية علمية تحليلية ونقدية لرفع اللبس عنها ووضعها في سياقاتها القرآنية لمعرفة ما يتناوله نصها من معارف وعلوم انسانية وأخلاقية.

إن الهدف الأساسي من أنجاز هذه الدراسة يكمن في منهجية استنباط ما تحتويه الصحيفة من معان سامية ساعدت ومازالت تساعد في تنظيم الحياة الاجتماعية والسياسية في المجتمع المسلم من خلال الفهم والتفسير وبيان دلالات ألفاظها للوقوف عند معانيها ومدى ارتباطها بهدايات القرآن الكريم وفق منهجية علمية موضوعية ومعاصرة.

ومن هذا المنطلق، يسعى هذا البحث إلى استقراء البنود صحيفة المدينة لاستجلاء ما تحمله من مبادئ ذات مقاصد قرآنية عليا ساهمت في ترسيخ مظاهر الموطنة وأسست للتعايش السلمي في مجتمع المدينة، لتكون أول تجربة رائدة في تاريخ العرب والمسلمين وذلك من خلال الإجابة عن الأسئلة التالية:

١. لماذا احتاج مجتمع المدينة إلى إبرام مثل هذه معاهدة التشريعية والقانونية، وهل ساهمت في إرساء قيم المواطنة وأسس التعايش السلمي بين مكوناته؟

٢. كيف هيأ دستور المدينة المناخ السياسي والاجتماعي والاقتصادي لبناء مجتمع إنساني قوامه العدل والإنصاف وضمان الحقوق واحترام الواجبات دون النظر الى العرق واللون والدين لتحقيق قيم المواطنة؟

٣. ما علاقة صحيفة المدينة بالهدي القرآني؟

وكيف للمسلمين اليوم الاستفادة من الدرس المقاصدي التي أرسته هذه الوثيقة في سن التشريعات القانونية والمدنية لتحقيق العدالة الاجتماعية والسياسية؟

وسنحاول الإجابة عن هذه الأسئلة من خلال **ثلاث مقاربات**:

الأولى: تهتم بدراسة مفهوم مصطلح "صحيفة المدينة" من حيث الدلالة والمقصد ومدى علاقتها بقيم المواطنة.

الثانية: تبحث في المفهوم المعاصر لمصطلح "المواطنة" في العلوم الاجتماعية والسياسية وعلاقتها بالصحيفة.

أما المقاربة الثالثة: فإنها تسعى إلى دراسة قيم المواطنة ومظاهر التعايش السلمي من خلال الصحيفة وعلاقتها بالمقاصد القرآنية.

أهميّة البحث وأهدافه:

تكمن أهمية البحث وأهدافه في إعادة دراسة نص صحيفة المدينة وما أحيط بها من جهود علمية مرتبطة باستنباط المقاصد القرآنية في علاقتها بالتشريعات والقوانين المدنية في مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية، طبق معايير البحث العلمي الحديث والمعاصر، قصد النهوض بالدراسات القرآنية في جوانبها العلمية والمعرفية، والبحث في كيفية تطويرها طبق المقاصد القرآنية والشريعة الإسلامية، مع تأصيل ما يجب تأصيله وتوضيح المجالات المختلفة للاجتهاد في القضايا القرآنية وفق رؤية نقدية.

المنهجيّة:

اعتمدنا في هذه الدراسة على منهجية التحليل والنقد والمقارنة لمعرفة المقصد القرآني التي اعتمدت عليها بنود الصحيفة بالاستعانة بمختلف الجهود العلمية التي قدمها جملة من الباحثين المعاصرين حول نصها وما تحتويه من تشريعات وقوانين مدنية في الاسلام، مبينين أهم الآليات المعتمدة لديهم لفهمها وأين تكمن مواطن الائتلاف والاختلاف ومدى تأثر بعضهم ببعض من حيث الطرح والمنهج.

ولأجل تحقيق هذه المنهجية العلمية، حاولنا في مختلف عناصر هذه الدراسة، ترتيب المادة العلمية المتعلقة بدلالة ومقصد مصطلح "صحيفة المدينة" كمرحلة تمهيدية لدراسة قيم المواطنة، ثم قمنا بدراسة تحليلية والنقدية مع شيء من التوسع لما جاء من أعمال علمية بمختلف مقارباتها لنبين مظاهر الاجتهاد في تحقيق أسس التعايش السلمي بين أطياف ومكونات مجتمع المدينة.

أما المرحلة الأخيرة من هذه الدراسة فإنها تهتم بالاستنتاجات العلمية المتعلقة بمسألة المواطنة وما يكتنفها من سياقات مختلفة علمية ومعرفية ساهمت في سنّ التشريعات والقوانين المدنية لتطوير المجتمعات الاسلامية.

١. مصطلح "صحيفة المدينة": الدلالة والمقصد.

يقصد بمصطلح "صحيفة المدينة" المعاهدة التي أبرمها النبي محمد عليه الصلاة والسلام بين المسلمين والمجتمع اليثربي بأطيافه المختلفة.[١] وقد رجح بعض

[١] ذكر الطبري أنه تمت كتابة صحيفة المدينة عندما قدم النبي محمد عليه الصلاة والسلام إلى المدينة في السنة الأولى للهجرة. الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الرسل والملوك، ج.٢/ ص:٤٧٩.

الباحثين اعتماد لفظ "الصحيفة" دون غيرها من الأسماء في الدراسات العلمية والتاريخية للأمانة العلمية،[١] لأنها استمدت من نص الرواية نفسها وهي تعني الوثيقة المكتوبة التي يرضى بها الفرقاء.[٢] .

فقد ورد لفظ "الصحيفة" في سبعة مواضع من طريق ابن شهاب الزهري في كتاب الأموال لأبي عبيد القاسم بن سلاّم. وفي تسعة مواضع من طريق ابن اسحاق كما جاء في كتاب السير لابن هشام.[٣].

وقد أطلق بعض المؤرخين على مصطلح "صحيفة المدينة" بميثاق "يثرب" نسبة إلى المكان الذي انعقدت فيه المعاهدة حيث كانت تسمى المدينة بيثرب في ذلك الوقت.[٤] إلا أن لفظ "صحيفة المدينة" غلب عليه "العلاقة الاشتقاقية بين المدينة والمدنية والتمدن ولا يمكن أن نتحدث عن مدنية في غياب جماعة يجمع بينهما حد أدنى من الانسجام والتوازن بفضل انفتاحها على الحضارات المجاورة ومظاهر المدنية فيها."[٥] .

كما أطلق على "صحيفة المدينة" "بالعهد النبوي،" أي زمن وقوع المعاهدة مع النبي الكريم حين هاجر إلى المدينة. قال ابن إسحاق: "وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابا بين المهاجرين والأنصار، وادع فيه يهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم وشرط لهم وشرط عليهم."[٦] إلا أن معظم الدراسات المعاصرة، الإسلامية منها والغربية، اعتمدت لفظ "دستور

---

(١) البشير المكي عبد اللاوي، صحيفة المدينة تأسيس لنواة تشريعية، ص:٢٩.

(٢) مونتجمري وات، محمد في المدينة، ص: ٣٤٦.

(٣) الصبابطي عفيف، صحيفة المدينة دراسة حديثية وتاريخية، ص: ٧-٨.

(٤) السهيلي، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله، الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، ج.٤/ ص: ١٧٢-١٧٣.

(٥) محمد طاع الله، قيم المواطنة في صحيفة المدينة، ص:٩٤-٩٥.

(٦) ابن هشام، أبو محمّد عبد الملك، السيرة النبوية لابن هشام، ص: ٢٣٢.

المدينة" أو "الدستور المدني،[١] نظرا لما في هذه المعاهدة من الصبغة المدنية والحقوقية والقانونية التي أرساها النبي الكريم عليه الصلاة والسلام في المدينة بعد الهجرة.[٢]

والمقصد من إبرام هذه الصحيفة إرساء نظام جديد يضبط العلاقات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية بين مكونات مجتمع المدينة بأطيافه المتعددة.

فكانت بمثابة الدستور التشريعي المدني والعقد اجتماعي الأول الذي ظهر في تاريخ العرب والمسلمين وفق معايير سياسية وأخلاقية جديدة، مهدت لإلغاء العصبية القبلية والنزعة الطائفية الدينية،

وساعدت على إعداد قوة ضخمة يؤمن من خلالها النبي الكريم عليه الصلاة والسلام الدعوة الإسلامية ضد أي عدوان مرتقب ولتكون النموذج الأوحد في روح المدنيّة فيها.[3]

في السياق نفسه، عدت صحيفة المدينة من الوثائق التي نفت الصفة الدينية عن الدولة في الفكر السياسي وأسست لدولة مدنية يتعايش في ظلها كل الأطياف الدينية تحت قيم المواطنة. [٤]

---

[١]. كتاب: محمد عابد الجابري، العقل السياسي العربي، محدداته وتجلياته، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ١٩٩٠. وكتاب: محمد حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، ط.٥، دار النفائس، بيروت، ١٩٨٧. ومن المدرسة الغربية: كتاب المستشرق الإنجليزي، منتجمري وات في كتابه: محمد في المدينة، تعريب شعبان بركات، منشورات المكتبة العصرية، بيروت.وسيكون من ضمن المصادر المستعملة في هذه الدراسة.

[٢] السديري، توفيق بن عبد العزيز، الإسلام والدستور، ج.١/ص:١١٣.

[3] بن جمور منير، رؤية مقاصدية لصحيفة المدينة، ص: ٦٤-٦٥.

[٤] الأنصاري، أحمد بوعشرين، مفهوم الدولة المدنية في الفكر الغربي والاسلامي – دراسة مقارنة لبعض النصوص التأسيسية، ص: ٢٤- ٢٥.

٢. مظاهر المواطنة من خلال "صحيفة المدينة"

يشير مصطلح "المواطنة" في العلوم الاجتماعية والسياسية إلى علاقة الفرد بالدولة وفق دستور مدني يضمن الحقوق والواجبات وينظم العلاقات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ويطورها عبر العصور. ومن أهم أهداف المواطنة في هذا السياق العمل على ادماج الفرد في المجتمع ومنحه الحقوق السياسية والمدنية الكاملة بكل استقلالية. وتفرض المواطنة جملة من الواجبات على كل من ينتمي إلى الوطن ويدين له بالولاء والطاعة ويخدمه في أوقات السلم والحرب ويعمل مع الآخرين لتحقيق الأهداف الوطنية.[١]

ومن خلال هذا التعريف لم يعد مصطلح "المواطنة" منحصراً في المفهوم السياسي الضيق أو المعطى القانوني فحسب، بل هو عبارة عن عقد الاجتماعي يجسّد إرادة الفرد من خلال مشاركته في الحياة السياسية، وتحمله المسؤولية في كل ما يهم الشّأن العام، و مكون من مكونات الرابط الاجتماعي المبني على التساوي في الحقوق والواجبات في كل مظاهر المواطنة، كما أشار المصطلح أنه لم تعد الحياة الاجتماعية مرتهنة بتقاسم نفس الديانة فحسب أو خاضعة لنفس السلطة فقط وإنما يكون المواطنون منتمين إلى نفس النظام.[٢] كما يؤكد المصطلح نفسه على أن "المدنية" هي الرابطة الوحيدة التي تمنح المساواة في الحقوق والواجبات لكل أفراد المجتمع في الدولة بغض النظر عن

---

[١] عبد الوهاب الكيالى، الموسوعة السياسة ، الموسسة ، ج/ ٢ ، ص:٢. زكى بدوى، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، ص: ٦٠. إبراهيم مدكور، معجم العلوم الاجتماعية، صادر عن منظمة الأمم المتحدة للتربية والثقافة والعلوم، ص: ٥٨٠. محمد عاطف الغيث، قاموس علم الإجتماع، ص:٥٦.

World Book ..Collier's Encyclopedia, Collier's, New York, vol. 6, p.447 international, The World Encyclopedia (London: World), vol. 4, p. 568. .Encyclopedia Britannica Inc The New Encyclopedia , I Britannica , vol .3., p. 332

[٢] محمد طاع الله، قيم المواطنة في صحيفة المدينة، ص:٩٨.

الاختلافات الدينية والعرقية واللغوية، وترتكز علي الالتزام الحر بمبادئ مدنية الدولة القائمة على التشاور والتوافق التي من خلاله تتوحد كل الأطياف تحت نظام سياسي واحد.[١]

ومن هذا المنطلق، فقد أثبتت الدراسات التاريخية أن ما قام به النبي الكريم عليه الصلاة والسلام عند إبرام الصحيفة من سن لقواعد قانونية وتشريعية جديدة يعكس أولى مظاهر قيم المواطنة في تاريخ الإنسانية، حيث ساهمت في تحقيق التعايش السلمي بين أطياف مجتمع المدينة.

كما رسخ قوانين مدنية الدولة للتعامل بين مكوّناته المتعدّد في إطار الاحترام المتبادل حماية لخصوصياتهم الدّينية، وألزمهم الانضباط وعدم التعدي على حقوق الآخرين بالالتزام بما جاء في الصحيفة دون غدر أو خيانة، باعتبارهم يكوّنون أمّة واحدة يملكون كل حقوق المواطنة ويتمتعون بها من خلال نظام تشريعي مدني جديد يضبط العلاقات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، ويقضي على الوازع القبلي والعرقي في المجتمع المدني الجديد.[٢]

وسنحاول في الفقرات التالية دراسة أهم مظاهر قيم المواطنة من خلال "صحيفة المدينة" ومدى تحقيقها للتعايش السلمي في ظل المقاصد القرآنية.

---

(١) Joh I. Cogan and Ray Derricott, citizenship for the 21 St century an international perspective on education, Kogan page, England, pp. 103-107.

(٢) مصباح الشيباني،"صحيفة المدينة" وأبعادها "المواطنيّة،" دراسة سوسيو تاريخيّة للدين الإسلامي، https://www.mominoun.com/

٣. مظاهر التعايش السلمي:

بالرجوع إلى بنود الصحيفة وما احتوته من قيم نبيلة سعى من خلالها النبي الكريم عليه الصلاة والسلام إلى تحقيق طرائق التعايش السلمي وقيم المواطنة بين مكونات مجتمع المدينة، ندرك بوضوح الرسالة الأخلاقية السامية التي تحملها هذه الوثيقة المستمدة مقاصدها العليا من القرآن الكريم، وكيف ساهمت في بناء أول دولة في المجتمع العربي الاسلامي على أسس القيم الكونية المشتركة، رسخ من خلالها أفراد مجتمع المدينة مبادئ الأخوة في الدين وحرية المعتقد، وحفظ الدماء والأعراض، ورفض الظلم والتمييز العرقي والقبلي بكل أنواعه، واحترم العهود والمواثيق، ومراعاة حسن الجوار، والحث على التعامل بالمعروف والإحسان دون غدر ولا خيانة لتحقيق السلم الاجتماعي العام.

أ. أهل المدينة أمة واحة:

لقد نجح النبي محمد صلى الله عليه وسلم في تحقيق المقصد القرآني المتمثل في قوله تعالى:﴿إِنَّ هَـٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾،[١] عندما شرع في تأسيس دولة جديدة تكون أمة جامعة لكل الأطياف الاجتماعية والسياسية لتحقيق الوحدة بينهم وبث روح الوطنية وترسيخ التعايش السلمي فيهم بدلا من إبقاءهم تحت تأثير العصبية القبلية والنزعة الطائفية التي يكون ولاء أفرادها ولاء مطلقاً لقبائلهم بحكم القرابة الدموية.[٢] فقد جعل عليه الصلاة والسلام من خلال هذه المعاهدة المدينة حرماً آمنا لكل من يسكنها رغم اختلاف أديانهم ومعتقداتهم وانتماءاتهم القبلية والعرقية، جاء في الصحيفة: "وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة،"[٣] تحقيقاً للمقصد القرآني حين وصفهم بأنهم "أهل المدينة" دون أن يقيد هذه الأهلية

---

[١] الأنبياء، الآية: ٩٢.

[٢] منتجمري وات، محمد في المدينة، ص: ٣٦٣.

[٣] ابن هشام، السيرة النبوية، ص: ٢٣٣.

بشرط المعتقد أو القبيلة، قال تعالى:﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ﴾.[1] لذلك دعت الصحيفة أصحاب الأديان والعقائد والقبائل والطوائف الذين يعيشون في المدينة، بأن يكونوا أمة واحدة ضمن مبدأ التعايش السلمي بينهم.

في هذا السياق، نصت الصحيفة على "أن المؤمنين والمسلمين أمة واحدة من دون الناس،"[2] و"أن اليهود أمة مع المؤمنين،"[3] لتؤكد على أن الرابطة التي تجمع بين المسلمين واليهود تنضوي تحت رابطة الإيمان من خلال قيم المواطنة و ليست رابطة الدين في بعدها العقائدي، ليتشكل بعد ذلك المفهوم الجديد للأمة في بعده المدني، مع الإقرار بحرية المعتقد وإبقاء الخصوصيات الدينية هي الفارقة بين الأطياف الاجتماعية في المدينة بحكم الواقع.[4] وعلى هذا الأساس أقرت الصحيفة: "أن للمسلمين دينهم ولليهود دينهم."[5] بهذا فرض المفهوم الأمة الجديد على سكان المدينة بكل مكوناتها المختلفة التعامل ضمن تراتيب قانونية تحترم الحق والواجب على النحو الذي تفرضه أي دولة مدنية وتحقيقا لقوله تعالى:﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾.[6]

يقول هشام جعيّط: "إن ظاهرة إشهار هوية جديدة هوية أمة المؤمنين تجبّ الأطر الاجماعية العتيقة (العشائر) لتبدو على قدر كبير من الأهمية بالنسبة إلى سلوك الناس وما يتعلق بأمن المدينة إنها تستثني واجبات جديدة واجبات التصرف لجماعة متضامنة متكاملة متجاوزة روابط الدم."[7] في هذا السياق،

---

(1) التوبة، الآية: ١٢٠.

(2) ابن هشام، السيرة النبوية، ص:٢٣٢.

(3) ابن هشام، المصدر نفسه، ص: ٢٣٣.

(4) محمد طاع الله، قيم المواطنة في صحيفة المدينة، ص:٩٩.

(5) ابن هشام، المصدر نفسه، ص: ٢٣٣.

(6) محمد طاع الله، المصدر نفسه، ص:٩٩. الكافرون، الآية:٦.

(7) هشام جعيط، مسيرة محمد في المدينة وانتصار الإسلام، ص: ٦٨.

يبرز مفهوم الأمة كوحدة متضامنة باعتبارها كيانا متميزا متفردا أمام أعدائها في ظل مظاهر المواطنة التي ألغت كل أنواع التحالفات القبلية القديمة، وسعت إلى استكمال مفهوم الأمة.[١]

من جهة أخرى، عضد سياق عبارة "ذمة الله" –وهي العقد المدني القائم بين المواطن الغير المسلم والدولة الاسلامية– في الصحيفة " وإن ذمة الله واحدة،"[٢] مفهوم الأمة الجديد في علاقته بتحقيق مبدأ الحماية كميثاق عام ومتقاسم بين كل مكونات المجتمع في المدينة لفرض الأمن الجماعي سواء من طرف المسلمين أومن غيرهم.[٣] ففي ظل مفهوم المواطنة الجديد الذي أسسته صحيفة المدينة أصبح لزاما على كل أفراد الأمة حماية المدينة بالتساوي وهو واجب وطني يفرض وجود علاقة قائمة ومستمرة بين الحامي بالمحمي دون الالتجاء إلى غرباء عن الأمة يقومون بمهمة الحماية.[٤]

وقد تعامل المسلمون مع الداخلين في "ذمة الله" بعدما منحهم الاسلام الاستقلالية التامة لممارسة شعائرهم الدينية دون تضييق وهو من موجبات المواطنة وتحقيقا للتعايش السلمي في ظل حرية المعتقد، فاكتسبوا من خلاله الحقوق الدينية والمدنية بالتبعية والولاء للدولة.

وقد حذر النبي الكريم صلى الله عليه وسلم كل من يعتدي على معاهد عندما قال: "أَلا مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا أَوِ انْتَقَصَهُ أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ فَأَنَا حَجِيجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ." [٥] كما ذكرت الصحيفة في السياق نفسه كلمتي "موالي" عند قوله: "وإن المؤمنين بعضهم

---

[١] منتجمري وات، محمد في المدينة، ص:٣٦٩.

[٢] ابن هشام، السيرة النبوية، ص: ٢٣٣.

[٣] منتجمري وات، المصدر نفسه، ص: ٣٧١.

[٤] منتجمري وات، المصدر نفسه، ص: ٣٧٢.

[٥] رواه أبو داود في سننه رقم الحديث: ٣٠٥٢.

موالي بعض دون الناس."[١] و"الاجارة" عند قوله:"وإنه لا يجير مالاً لقريش،"[٢] لتكتسيا "دلالة جديدة في صلب مفهوم الأمة لتخرج بالمفهومين عن الدلالة القديمة والمرتبطة بالمقوم القبلي وتنشئ أواصر لحمة متينة جديدة تعزز كيان الأمة."[٣].

هكذا رسخت قيم المواطنة مفهوم الأمة ببعديها المدني والديني لتحقيق التعايش السلمي بين مكونات مجتمع المدينة الذي كان ضمن العناصر الأساسية لحظة إبرام الصحيفة بين النبي الكريم صلى الله عليه وسلم وبقية أطياف مجتمع المدينة. لذلك خاطبت الجميع باعتبارهم أمة واحدة ينتمون إلى نفس الوطن ولهم كامل الحقوق والواجبات ضمن مفهوم الدولة "التوافقية" الجامعة بين المسلمين وغيرهم.[٤]

كما مثل دستور المدينة الضمانة الخاصة بين أطياف مجتمع المدينة، حيث كان ينظر إلى العدالة الاجتماعية التي سيتمتع به أفرادها وكل الجماعات المرتبطة بها على أنه نتيجة "لذمة الله" خاصة عندما "أخذ مفهوم الذمة الميثاق المعقود مع الله والضمانة التي يعطيها لعباده."[٥]

ب. الأخوة وحرية المعتقد:

لم يكن من الصعب على النبي الكريم عليه الصلاة والسلام ترسيخ أواصر الأخوة بين مكونات مجتمع المدينة حين خاطبهم بروح المحبة، داعياً إياهم بصورة جلية إلى تكريس مبادئ التكافل الاجتماعي بأن يقتسم كل

---

[١] ابن هشام، المذر نفيه، ص: ٢٣٣.

[٢] المصدر نفسه.

[٣] محمد طاع الله، قيم المواطنة في صحيفة المدينة، ص:١٠٠.

[٤] محمد حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، ص: ٥٩-٦٢. محمد طاع الله، المدر نفسه، ص:١٠١.

[٥] منتجمري وات، محمد في المدينة، ص: ٣٦٤.

واحد منهم نصف ما يمتلكه مع أخيه المؤمن في ظل الاحترام الانساني المشترك.[١] ثم مضى بعد ذلك بالمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، و بين الأوس والخزرج،[٢] تحقيقا لقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾.[٣]

ولم يكن حتى أصحاب المعتقدات الأخرى منهم ببعيدين عن هذا التآخي، الذي بلغ كل الأطياف الإنسانية في المدينة على اختلاف أنسجتهم القبلية والعشائرية المتنوعة والمتعددة لتفعيل ما دعت إليه "صحيفة المدينة" من مقاصد قرآنية في ظل قوله تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾.[٤]

لقد سعى النبي الكريم عليه الصلاة والسلام إلى ترسيخ مبدأ الأخوة بين المؤمنين بدلا من الأخوة في النسب، انطلاقا من المبدأ القرآني: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾،[٥].

وحلّ مفهوم الأمّة الشامل محلّ مفهوم القبيلة والعشيرة الضيق استجابة لقوله تعالى:" ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾،[٦] وقد جسدتها صحيفة المدينة واقعا ملموسا بقول النبي الكريم عليه الصلاة والسلام :"إنهم أمة واحدة من دون الناس."[٧] هكذا بدت كلمة "أمة" في نص الصحيفة بمفهومها العام لتشمل

---

[١]ابن هشام، السيرة النبوية، ص:٢٣٤-٢٣٥.

[٢] ابن هشام، المصدر نفسه، ص: ٢٣٤.

[٣] الحشر، الآية:٩.

[٤] المائدة، الآية:٢.

[٥] الحجرات، الآية:١٠.

[٦] آل عمران، الآية:١٠٤.

[٧] ابن هشام، المصدر نفسه، ص: ٢٣٣.

جميع الأطياف الدينية من مسلمين ووثنيين ويهود ومشركين، تحت مبدأ الأخوة والمؤاخاة الذي له أثر عظيم في تمكين الأمة الجديدة من تجاوز العصبية القبلية والفتن الدينية التي كانت سائدة بينهم في عصر الجاهلية.[١]

كما نبهت إلى أهمية ترسيخ نظام التعايش السلمي في المجتمع وتقويته تحت المبدأ المواطنة الذي دعت اليه الصحيفة حتى يتحقق المقصد القرآني بينهم في بناء الأمة وتصبح واقعاً ملموساً على المستوى الاجتماعي والسياسي والاقتصادي.[2] من جهة أخرى، لقد منحت صحيفة المدينة حرية المعتقد لأصحاب الأديان المتعددة فيها ترسيخاً لمبدأ الأخوة في المجتمع وتحقيقاً لقيم المواطنة في مجتمع المدينة، وذلك لصرف النظر عن كل الاختلافات العقائدية للأطياف الدينية المتعددة، حيث نبهت الصحيفة إلى أهمية مكونات الأمة الجديدة بمفهومها الواسع دون نزعة قبيلة أو عرقية ضيقة.

ومن أهمّ البنود التي دعت لذلك إقرار النبي الكريم صلى الله عليه وسلم أن "لليهود دينهم وللمسلمين دينهم،"[٣] تحقيقاً للمقصد القرآني : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾،[٤] فلم يجبر عليه الصلاة والسلام أحدا من اليهود على الدخول في الإسلام، أو اعتناق دينا دون عقيدته كرهاً تحقيقاً لقوله تعالى:﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾،[٥] بل تركهم على ملتهم من باب حرية المعتقد والاعتراف بها، وهو المقصد الأساسي الذي يسعى دستور المدينة تحقيقه حتى لم تعد الأمة أمة دينية

---

[١] المصدر نفسه.

[2] محمد عابد الجابري، العقل السياسي العربي، محدداته وتجلياته، ص:٩٦.

[٣] ابن هشام، السيرة النبوية، ص: ٢٣٣.

[٤] الكافرون، الآية:٦.

[٥] البقرة، الآية:٢٥٦.

خالصة،[1] بل يسعى إلى تحقيق مبدأ المساواة في الحقوق الدينية، وتمكين أفرادها من أداء شعائرهم بكل حرية واحترام متبادل مصداقا لقوله تعالى: ﴿لِكُل جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَة وَمِنْهَاجاً﴾.[2]

ومن الملفت للنظر أنه لم تكن حرية المعتقد في نص الصحيفة خاصة باليهود دون غيرهم، بل شملت بقية الأطياف الدينية الأخرى. فتركت المشركين على عقائدهم ووفرت لهم الحماية والأمن والاستقرار، لترسيخ مبدأ التعددية الدينية في المجتمع الواحد واحترامها كقيمة أخلاقية تساهم في بلورة نظام سياسي جديد مبني على التوافق وحق الاختلاف، له طابع تشريعي ومدني قائم على الاجتهاد والتغيير، ويستجيب لكل متطلبات الواقع وفق معطيات طبيعة المجتمع المدني بأنساقه المختلفة.[3]

إنّ في هذا التوجه الجديد التي أرسته صحيفة المدينة لدلالة واضحة على أن الرسالة الإسلامية في جوهرها تقرّ بحرية الاعتقاد وإقامة الشعائر الدينية لكل مكونات مجتمع المدينة. وهو مقصد قرآني نبيل تمثل في قوله تعالى: ﴿وقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾،[4] .

وهو من أهم التّعاليم القرآنية ومقاصده التي تجسّدت في ترسيخ قيم المواطنة والتعايش السلمي في نص الصّحيفة " ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر،"[5] حيث أسست تقاليد جديدة في تنظيم التّعامل بين النّاس جوهرها القيم الأخلاقية، كالسّماحة والأخوّة والتراحم بين مختلف مكوّنات المجتمع المدينة.

---

[1] منتجمري وات، محمد في المدينة، ص:٣٦٧.

[2] المائدة، الآية: ٤٨.

[3] ابن هشام، المصدر نفسه، ص:٢٣٢-٢٣٣.

[4] الكهف، الآية:٢٩.

[5] ابن هشام، المصدر نفسه، ص: ٢٣٣.

ت. التكامل بين مكونات المجتمع:

دعت الصحيفة في ضوء الهدي القرآني العظيم والسنة النبوية المطهرة إلى ضرورة تحقيق مبدأ التكامل مع الآخر وهو شرط من شروط مقومات المواطنة والتعايش السلمي وذلك عندما نصت على كل مكونات مجتمع المدينة بأطيافه المتعددة الهويات والثقافات دون إقصاء لأي طرف منهم، لضمان تحقيق التعامل العادل بين أفراد المجتمع في المدينة، شريطة أن يقوم هذا التعامل على التفاعل الايجابي والاحترام المتبادل، ويصبح فيه التباين والاختلاف تنوعاً فكرياً يساعد على تطوير الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية في المدينة.

لقد ورد في الصحيفة قوله صلى الله عليه وسلم:"إلا على سواء وعدل بينهم."[1] فالمساواة والعدالة ركنان أساسيان وردتا لتحقيق التكامل والتفاعل الايجابي بين كل مكونات مجتمع المدينة، دعا إليه القرآن في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.[2] كما وقع الترغيب فيه من طرف النبي الكريم عليه الصلاة والسلام بل وجعله شرطا من شروط الإيمان حين قال:"لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه."[3] وهو إقرار كامل من أن الإنسان في حقيقته جزء من منظومة اجتماعية متكاملة تكتمل حلقتها عندما يؤمن بحق الآخرين في الوجود بندية متكافئة ومتساوية وعادلة، مما يساعده على تحقيق إنسانيته من خلال إنسانية الآخر في ظل قيم المواطنة والتعايش والسلمي.

وفي المقابل لا تنفي الصحيفة من خلال بنودها أن الاختلاف فطري في الإنسان وأن القرآن الكريم أكد بأنه إرادة إلهية مكنونة في جوهر الإنسان، وهو

---

(1) ابن هشام، السيرة النبوية، ص: ٢٣٣.

(2) المائدة، الآية: ٨.

(3) أخرجه البخاري،باب خلاصة حكم المحدث، رقم الحديث:١٣ ومسلم، رقم الحديث:٤٥.

شرط لازم لوجود الحياة، بل إنّ الله تعالى لم يخلق النّاس إلاّ من أجله. قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّة ًوَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْۗ﴾.(١)

كما يشمل هذا الاختلاف رؤية الإنسان لأصحاب الأديان وعلاقتهم بالله سبحانه وتعالى عموماً مصداقا لقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾،(٢) لذلك جاء مبدأ التسامح ليدل على أنَّ الناس مختلفون بِطبعِهم سواء على مستوى السلوك أو القيم، وهو ليس بعقيدة بل هو ممارسة والتزام أخلاقي سامي ينبذ العنف و يبعث على الاحترام والعيش المشترك.

وقد بينت الصحيفة من خلال بنودها أن التسامح قيمة إنسانيةُ منبعِثة مِن الفِطرة السَّليمة التي تساعد على تمتين العلاقة مع الآخر. قال تعالى: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أولئك لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾، وقال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.(٣)كما حدّدت الصحيفة بشكل واضح الأساس الأخلاقي والقانوني الذي يجب أن يعامل به المسلمون غيرهم من الأطياف المكونة لمجتمع المدينة، على أساس مبدأ البرّ والقسط لكل من لم يناصبهم العداء، وهو غاية مقصد التسامح من قوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾.(٤) هكذا يؤكّد القرآن أن التّعايش السلمي لا يكتمل إلاّ بقبول الآخرين في تنوّعهم بصفتهم طرفا أساسيا مهما اختلفوا وتنوعوا، فإنهم يشتركون في نفس الجوهر الكامن في قيم المواطنة.

---

(١) هود، الآية: ١١٨- ١١٩.

(٢) يونس: الآية:٩٩-١٠٠.

(٣) الرعد، الآية:٢٢. وفصلت، الآية:٣٤.

(٤) الممتحنة، الآية:٨.

إن حضور ثقافة التكامل بين سكان المدينة يكمن في الوعي بالقواسم المشتركة للقيم الكونية القائمة بين المؤمنين واليهود والوثنيين والمشركين لاشتراكهم في تحقيق المصلحة العليا للوطن وهو مطلب أساسي من مطالب قيم المواطنة ومظهر من مظاهر التعايش السلمي ومقصد تسعى صحيفة المدينة إلى ترسيخه في سلوك أفراد المجتمع لما تحمله من قيم إنسانية متكاملة متأصلة في بنودها، وهو إقرار في حد ذاته بأنه لا يستقيم أمر التكامل في المجتمع حتى يقتنع كل طيف منه أنه يمثل جزءا من الكل وليس هو الكل.

بهذا المعنى كفلت الصحيفة أمر التكامل بين مكونات مجتمع المدينة وحمته بقوة القانون، وضمنت من خلاله الحقوق والمساواة والحرية للأفراد والجماعات، وأكدت على أن الإنسان مهما كانت عقيدته فإنه قادر فطريا على تحقيق التعامل الإيجابي ضمن قيم الخير والبرّ والإحسان والرحمة والتضامن والتعاون مع الآخر قصد تحقيق المصالح المشتركة لإعمار الكون وإحلال السلام والترغيب في والتآلف والتقارب.

وفي المقابل دعت الصحيفة- في الوقت نفسه- إلى رفض التعامل السلبي الكامن في دواعي الشرّ والعنف والإرهاب والاقتتال والتفرقة ونشر الفساد في الأرض مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِها وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾،[1]

جاء في الصحيفة: "أو ابتغى دسيعة ظلم، أو إثم أوعدوان، أو فساد بين المؤمنين،"[2] فلن يتحقق مشروع التكامل -من منظور الصحيفة- مع مجتمع إنساني يرغب في التموقع القبلي والعرقي داخل أطر ضيقة ليكون أقرب إلى التوحش فلا يحقق إنسانيته من خلال هذا السلوك، ويصبح خطرا ليس على نفسه وأهله فقط، بل على مجتمع المدينة بأكمله.

---

(1) الأعراف، الآية: ٥٦.

(2) ابن هشام، السيرة النبوية، ص: ٢٣٣.

إن هذه القيم الكونية المشتركة التي دعت إليها صحيفة المدينة قادرة على ترسيخ اسس التعايش السلمي والتكامل الاجتماعي وذلك بتركيز قيم التضامن بين كل أطيافه الدينية والعرقية من خلال إحلال السلام والعيش المشترك، لتدعيم علاقات التآخي بينها وبين مكونات الأمة الجديدة، جاء في الصحيفة "وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم."[1]

لقد بينت الصحيفة من خلال مشروع التكامل أن التعايش السلمي بين أفراد المجتمع الواحد ضرورة إنسانية، وهو من جوهر الدين الاسلامي ومقاصده العليا الذي يقوم على التآلف والتعارف من أجل إعمار الأرض بالخير والصلاح، قال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.[2] لذلك كان مجتمع المدينة أيام عصر النبي الكريم عليه الصلاة والسلام النموذج الكامل الذي احتل المكانة العليا بالمعنى الحضاري وعلى كل المستويات في تحقيق المقاصد القرآنية النبيلة.

ث. الأمن والاستقرار:

إن من أهم قيم المواطنة التي نصت عليها الصحيفة وجوب الدفاع عن المدينة لتحقيق الأمن والاستقرار وضمان استمرارية التعايش السلمي بين أطيافها. وقد تجلت مقاصد هذه القيم عندما توجه النبي الكريم صلى الله عليه وسلم بخطابه إلى كافة الفرقاء في المدينة فدعاهم إلى إقامة والصلح فيما بينهم تعزيزا لأواصر الأخوة، جاء في الصحيفة: "وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه، وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين، إلا من حارب في الدين."[3] والحث على الالتزام بالصلح وقبوله بين

---

[1] ابن هشام، السيرة النبوية، ص: ٢٣٣.

[2] الحجرات، الآية: ١٣.

[3] ابن هشام، المصدر نفسه، ص: ٢٣٣.

كل الأطراف الاجتماعية دليل على حرص النبي الكريم في تحقيق السلم وضمان الأمن والاستقرار الاجتماعي عن طريق الاستجابة للدفاع عن حرم المدينة ومحاربة أعدائها مصداقا لقوله تعالى: ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ﴾ وقوله: ﴿ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.(١)

كما ساهمت الدعوة إلى الصلح في تماسك أواصر المجتمع وضمان استقراره السياسي والاجتماعي والاقتصادي في الداخل والخارج وذلك عن طريق تأمين حرية التنقل لتغيب أسباب الفتنة الطائفية والقبلية بينهم، وهو المقصد الانساني النبيل الذي تصبو إليه أمة المدينة الجديدة لضمان استقرارها وأمنها وسلامتها جاء في الصحيفة: " وإنه من خرج أمن ومن قعد أمن بالمدينة."(٢) ولم تكتف الصحيفة بتحقيق هذه المقاصد فحسب، بل دعت إلى مناصرة كل من التزم بميثاق بنودها ولم يخرج عنها. فقد أوجب النبي الكريم عليه الصلاة والسلام حماية كل من انضوى تحت هذه المعاهدة بتوفير الأمن له والنصرة والمواساة، جاء في الصحيفة: "وأن المؤمنين المتقين أيديهم على كل من بغى منهم أو ابتغى دسيعة ظلم أو إثماً أو عدواناً أو فساداً بين المؤمنين، وأن أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم.... وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم."(٣) وهي دعوة صريحة للتآزر والتناصر والوحدة والمساواة في الحقوق والواجبات لتوفير الأمن والاستقرار تحت لواء هذه المعاهدة تحقيقاً لقوله تعالى:﴿ وإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾.(٤)

---

(١) الأنفال، الآية:٦١.

(٢) ابن هشام، المصدر نفسه، ص: ٢٣٣.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، ص: ٢٣٣.

(٤) الأنفال، الآية:٧٢.

ومن البنود التي ساهمت في تحقيق الأمن بين أطياف مجتمع المدينة منعهم إقامة أي علاقة مع قريش سواء كانت من قبيل إيواء مشركيها أو حماية أموال مواطنيها، بل وحظرت الدخول في أي معاهدة أو تحالف مع أي عدو من أعداء المدينة حتى لا يقع ضرر بأهلها ومراعاة للمصلحة العامة يقول صلى الله عليه وسلم: "وأنه لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفساً ولا يحول دونه على مؤمن.. وأن لا تجار قريش ولا من نصرها.... وأنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثاً أو يؤويه، وأنه من نصره أو أواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل."[١] وأما قوله "وأنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد"[٢] .

فقد أورده النبي الكريم عليه الصلاة والسلام في الصحيفة من سياق الأخذ بالحيطة والتوقي والتوجس من خطر التحالفات التي كانت بين القبائل اليهودية وقريش وكذلك من المكائد التي كانت تحيكها قريش مع أفراد من تلك القبائل. وهو اجراء استثنائي وقع في حق اليهود دون غيرهم من سكان المدينة.[٣]

لقد كان لهذه البنود التي توجه بها النبي الكريم عليه الصلاة والسلام إلى كل قبائل المدينة مع اختلاف أديانهم وعقائدهم الأثر الكبير في توفير الأمن والاستقرار داخل المدينة وحماية حدودها من أي عدو غاشم يضر بالمصلحة العامة، وعملا بقوله تعالى:﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُباتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعاً ﴾،[٤] مع اعتبار أنه من فعل ذلك فهو مطرود من رحمة الله وغضب عليه يوم القيامة ولا يقبل منه صرف ولا عدل. وهو حكم يقطع كل أنواع الفتن الطائفية والقبلية والعرقية ويضبط التحركات في الداخل والخارج

---

(١) ابن هشام، المصدر نفسه ص: ٢٣٣.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) محمد طاع الله، قيم المواطنة في صحيفة المدينة، ص:١٠٢.

(٤) النساء، الآية:٧٢.

ويوفر الأمن والاستقرار بينهم ويحقق التعايش السلمي بين أبناء المجتمع الواحد.

ومن البنود التي ساعدت على تحقيق الأمن والاستقرار وإصلاح ذات البين في مجتمع المدينة إقرار النبي الكريم عليه الصلاة والسلام مبدأ دفع الدية "التعاقل" لأهل القتيل بالعدل. جاء في الصحيفة: "وأنه من اعتبط مؤمناً قتلاً عن بينة فإنه قود به إلا أن يرضى ولي المقتول (بالعقل)، وأن المؤمنين عليه كافة لا يحل لهم إلا قيام عليه."[1] وهي من الحقوق التي تساعد على حفظ النفس وحرمة الدماء، وقد دعم القرآن الكريم هذا الحق، ولكن دعا في نفس الوقت إلى العفو عند المقدرة من باب الإحسان وليس على سبيل الإلزام، جاء في الصحيفة: "المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم وهم يفدون عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين...."[2]. فلم تستثن الصحيفة أي طائفة أو قبيلة إلا وذكرتها حتى تؤكد أن هذا الحكم عادل جاء لإنصاف أهل القتيل تصديقا لقوله تعالى: ﴿ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْۚ﴾،[3] وهو حكم عام أكدته الصحيفة ولم تفرق بين أحد من سكان المدينة حتى لا يفتح باب الثأر فتعم الفوضى وتسيل الدماء كما كان عليه العمل في الجاهلية فلا يستقيم مبدأ التعايش السلمي بينهم ولا تتحقق قيم المواطنة. ولما كانت الوظيفة إصلاح ذات البين تستوجب إقامة العدل بين الناس وحماية حقوقهم فإن القرآن جاء ليرسخها بين أطياف أهل المدينة قال تعالى :﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولٞۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمۡ قُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾.[4]

---

[1] ابن هشام، المصدر نفسه، ص: ٢٣٣.

[2] ابن هشام، السيرة النبوية، ص: ٢٣٣.

[3] النساء، الآية: ٩٢.

[4] يونس، الآية: ٤٧.

لقد مثل دستور المدينة الضمانة الخاصة لتحقيق الأمن والاستقرار بين أطياف مجتمع المدينة، إذ كان ينظر إلى الأمن الذي يتمتع به أفرادها وكل جماعاتها على أنه نتيجة لذمة الله بعدما أخذ مفهوم الذمة الميثاق المعقود مع الله والضمانة التي يعطيها لعباد.[١]

ج. الاحتكام إلى الله ورسوله:

مثلت الصحيفة في مجتمع المدينة المرجعية القانونية والدستور التشريعي في كل ما يتعلق بالقضاء والفصل في النزاعات بين الناس لنصرة المظلوم وتمكينه من أخذ حقوقه كافة تحقيقا لقيم المواطنة المتمثلة في المساواة في الحقوق والواجبات والتعايش السلمي في مفهومه الجديد. وبالرجوع إلى نص الصحيفة فإننا نلاحظ في مقدمتها الإقرار الجماعي بأن النبي محمد رسول من عند الله سبحانه وتعالى وأنه يتصرف وفق ما يوحى إليه من ربه في إدارة الشأن العام للجماعة المسلمة في المدينة مما أكسبه الزعامة السياسية والقيادة العسكرية التي فرضت نفسها على مستوى التسيير وتوجيه الأحداث في ذلك الوقت.[٢]

ولقد كان للقرآن الكريم الدور الفعال في ترسيخ هاته الصورة عندما قرن طاعة الله بطاعة رسوله في قوله تعالى:﴿ مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ ﴾،[٣] أضف إلى ذلك ما قام به النبي الكريم عليه الصلاة والسلام من صلح بين الأوس والخزرج والجمع بينهم بعد إنقاذهم من ويلات الحروب الدموية التي كانت دائرة بينهم، لذا كان"جزءاً ميلهم إليه أملهم بأنه يستطيع وضع حد للنزاعات الداخلية التي حولت الحياة في المدينة لا تحتمل." [٤]

ومن هذا المطلق حددت الصحيفة من خلال بنودها الاحتكام إلى النبي الكريم

---

[١] منتجمري وات، محمدفي المدينة، ص: ٣٦٤.

[٢] محمد طاع الله، قيم المواطنة في صحيفة المدينة، ص:١٠٢.

[٣] النساء، الأية: ٨٠.

[٤] منتجمري وات، محمد في المدينة، ص: ٣٤٩.

في كل ما يحدث بين الناس فقد ورد قوله صلى الله عليه وسلم :" وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله وإلى محمد....وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده، فإن أمره إلى الله وإلى محمد النبي."[1] .

إقرار بأن النبي الكريم بعد الله سبحانه وتعالى هو المرجع الأساسي في الاحتكام باعتباره المسؤول الأول في إبرام هذا العقد التشريعي لتنفيذ أحكامه بين كل أطياف مجتمع المدينة وهي رسالة طمأنة لكافة كياناتها، كما جاء القرآن ليقرر هذا الاحتكام: قال تعالى:﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾،[2]

ولا يتحقق مبدأ الاحتكام إلى الله ورسوله إلا بتحقيق مبدأ التناصح والتشاور بين مكونات المجتمع لربط العلاقة بين سكانه المتعدد الأديان والأعراق تحقيقا للمصلحة العامة قال عليه الصلاة والسلام: "وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم."[3] والتناصح يشمل قبول آراء الآخرين ولا يكون إلا بإقامة التعاون وتبادل المنافع ونشر الصدق والخير للجميع والإخلاص في والنية و المعاملات وهو عام شمل كل المجتمع المدينة الحاضرين عند صياغة الميثاق مع النبي الكريم صلى الله عليه وسلم. كما أقرت الصحيفة أن الله تعالى هو المعين لكل من التزم ببنودها وخشي الله تعالى، وقام بتطبيقها. قال صلى الله عليه وسلم: "إن الله جار لمن بر واتقى ومحمد رسول الله."[4] وهو بمثابة الإقرار على هذه البنود لتصبح الوثيقة الرسمية التي تحدد العلاقات والمعاملات في المدينة مع إلزام كل طرف بتطبيقها والالتزام بها.

---

[1] ابن هشام، السيرة النبوية، ص: ٢٣٣.

[2] النساء، الآية:٥٩.

[3] ابن هشام، المصدرنفسه، ص: ٢٣٣.

[4] المصدر نفسه.

ح. العدل والوسطية:

بينت صحيفة المدينة من خلال بنودها أن منهج الوسطية والاعتدال أصل ثابت في تعامل النبي الكريم عليه الصلاة والسلام مع كل أطياف مجتمع المدينة. قال عليه الصلاة والسلام:

"وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وأن سلم المؤمنين واحدة لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم. وأن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه. وأنه لا يأثم أمرؤ بحليفه وأن النصر للمظلوم. وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم."[1]

لقد ذكرت الصحيفة لفظ "المعروف" و"القسط" و"العدل" دليل على قيام العدل بين أطراف المعاهدة لأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم وتصديقا لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.[2] كما ذكرت الصحيفة "أن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه" لقيامهم العدل والقسط بين الناس.

لذلك تمسك النبي الكريم عليه الصلاة والسلام بإقامة العدل لبناء أمة الوسطية لتكون من خير أمة أخرجت للناس، و يصير العدل والوسطية تشريعا للذين يحملون مسؤولية دعوة الناس إلى الخير والإحسان، ويتركون فعل الشر والضلال، و يتجهون إلى مهمة بناء الأمة وتربية أفرادها تربية حسنة أخلاقا وعلما وعملا، قال الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾،[3] وقوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ

---

(1) المصدر نفسه.

(2) النحل، الآية:٩٠.

(3) البقر، الآية :١٤٣.

بِاللَّهِ﴾.[1] وهو إقرار بأن الدين الإسلامي دين التوسط والاعتدال؛ على مستوى العقيدة والسلوك. فلا يميل إلى التفريط والتقصير، ولا يجنح إلى الإفراط والغلو، رغبة في تحقيق الاستقامة والصلاح وهو مقصد الصحيفة في إقامة العدل بين الناس لتحيق قيم المواطنة والتعايش السلمي.

إن بنود الصحيفة أظهرت أن الاسلام كله حق وعدل وخير ومقصد أسمى ومظهر حضاري للانسانية جمعاء، واعتدال في كل أمور الحياة الناس وأنفعها، لذلك كان من مقاصد إبرام النبي الكريم هذه الصحيفة إقامة العدل والوسطية ليحل الأمن والسلام بين أفراد مجتمع المدينة وزرع الثقة والطمأنينة والإحساس بالآخرين ونشر قيم التعاون والتكافل لتحقيق التعايش السلمي بين الأغنياء والفقراء والقوي والضعيف.

كما بينت الصحيفة أن الإسلام في جوهره دين وسطي يأخذ من كلٍ بنصيب باستعابه للآخرين، لأنه "دين الفطرة" فلا مغالاة فيه ولا تطرف، ولا استكبار ولا خنوع ولا عبودية لغير الله، ولا يحث على التعصب لطائفة أو قبيلة أو حزب، ولا يبث الكراهية ولا يرهب الناس.

لذا عدت هذه الصحيفة أول دستور بشري انجز في تاريخ المسلمين يعكس مجدهم السياسي والحضاري.[2]

---

[1] آل عمران، الآية: ١١٠.

[2] الشيخ صفي الرّحمان المباركفوري، الرحيق المختوم: بحث في السّيرة النبوية، ص: ١٧٠.

الخاتمة:

لقد مثلت صحيفة المدينة العقد اجتماعي والقانوني الأول في تاريخ والمسلمين والخطوة المهمة الأولى في الإعلان عن بداية تأسيس نظام حكم في الاسلام بضوابط سياسية وأخلاقية جديدة ساهمت في بناء مجتمع واحد وفق أحكام القرآن الكريم ومقاصده.

فنظمت العلاقات الاجتماعية والسّياسية والاقتصادية بين مختلف المكّونات والطّوائف على أسس وثوابت جديدة.

وأرست حياة مشتركة لإدارة الشأن العام، دون استثناء لأي أحد من مكونات مجتمع المدينة. كما رسخت بينهم الشعور بوحدة الصف والأخوة وروح الانتماء إلى الوطن الواحد والولاء إليه. فألزمتهم جميعاً الدّفاع عنه أثناء الحرب وفي حالة السلم دون تفرقة أو تمييز.

كما أصبحت السلطة فيه مبنية على التشاور والتوافق المستمدة من مدنيّة الدولة وقيم المواطنة والتعايش السلمي بين مختلف مكوّناته فانتقلوا بذلك من إطار القبيلة إلى إطار الأمة والدولة، وأصبحوا "أمة واحدة من دون الناس" كما نصت الوثيقة.

من جهة أخرى، لقد اهتمت الصحيفة بسن قوانين كونية متعلقة بتحقيق التعايش السلمي وقيم المواطنة في سياقاتهما وأبعادهما الاجتماعية والسّياسية، مما يعكس قيمة الدور الايجابي التي لعبته في بناء مجتمع مدني متوازن كان قد غلب عليه طابع العصبية والقبلية والطائفية والعرقية في نظامه الديني والأخلاقي والسياسي.

فبفضل هذه المعاهدة انبعثت في مجتمع المدينة تشريعات مدنية جديدة مبنية على المقاصد القرآنية والسنة النبوية العطرة ساعدت على بناء أمة واحدة تعتبر قيمة الذات الإنسانية جوهرية في كل نظام حياتها. لذا تميزت هذه المعاهدة بالرقي والكمال في أبعادها الأخلاقية والمدنية والقانونية حيث ساهمت

في بناء مجتمع تجسد فيه التعايش السلمي والتسامح والأمن والاستقرار والتشاور والاحتكام إلى الله ورسوله والمشاركة في بناء أمة واحدة تماهت في أبعادها الأخلاقية والدينية، إذا ما قورنت بما هو موجود من أنظمة وسياسات في تاريخ الإنسانية.

لقد أحدثت صحيفة المدينة نقلة نوعية في تطور الجزيرة العرب على المستوى الاجتماعي والسياسي والأخلاقي والديني لما تحتويه من مضامين حضارية وأبعاد إنسانيّة فكانت النموذج الأرقى والدافع القوي في ترسيخ دولة الاسلام وإقناع الآخرين بمبادئه السمحة ومقاصده العليا في تاريخ الإنسان.

كما ساهمت الصحيفة من خلال مقاصدها الأخلاقية والانسانية في ترسيخ نظام اجتماعي جديد ضمن قيم المواطنة يسوده التعايش السلمي بين مكوناته ويجسد الاحترام المتبادل والقيم الانسانية النبيلة والسلم والاحسان والبر وقبول الآخر دون إراقة دماء ولا تنازع للمحافظة على الوحدة الأمن باعتبارهم أمة واحدة. كل هذه المقاصد القرآنية والتوجهات النبوية ساهمت في بناء مجتمع جديد يسوده الأمن والاستقرار بعدما كان تسوده الجاهلية، والعصبية والقبلية والطائفية.

التوصيات:

١. الدعوة إلى مزيد تثمين المادة العلمية المتعلقة بصحيفة المدينة والمبثوثة بين طيات الدراسات العلمية والتاريخية المعاصرة.

٢. العمل على إيجاد الدراسات التاريخية من كلا المدرستين الاسلامية والغربية التي تطلعنا على الإضافات التي قاموا بها وسكت عنها من سبقهم.

٣. تشجيع الباحثين الشبان على مزيد إيلاء هذه المادة ما نستحقه من بحث وتمحيص وتحقيق وتوظيف حتى تعمّ الفائدة وتحيي الجذور الأولى لهذه الدراسات.

٤. الحث على إحكام البحوث العلمية والأكاديمية المتعلقة بالصحيفة والقيام بالدراسات المقارنة والترجيح والنقد لمعرفة الآراء التي ساهمت في فهمها والاعتماد عليها كثروة تشريعية تسن القوانين المدنية.

المصادر والمراجع:

١. إبراهيم مدكور، معجم العلوم الاجتماعية، صادر عن منظمة الأمم المتحدة للتربية والثقافة والعلوم، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٥.

٢. ابن هشام، أبو محمّد عبد الملك، السيرة النبوية لابن هشام، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ٢٠٠٩.

٣. الأنصاري، أحمد بوعشرين، مفهوم الدولة المدنية في الفكر الغربي والاسلامي – دراسة مقارنة لبعض النصوص التأسيسية. المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، أفريل، ٢٠١٤.

٤. أبو عبد الله، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة ابن بردزبه البخاري الجعفي، صحيح البخاري، دار طوق النجاة، بيرةت، ١٤٢٢.

٥. البشير المكي عبد اللاوي، صحيفة المدينة تأسيس لنواة تشريعية، مقال في كتاب: صحيفة المدينة ومبادئها، وزارة الشؤون الدينية، تونس، ٢٠١٧.

٦. بن جمور منير، رؤية مقاصدية لصحيفة المدينة، مقال في كتاب: صحيفة المدينة ومبادئها، وزارة الشؤون الدينية، تونس، ٢٠١٧.

٧. حمد حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، دار النفائس، بيروت، ١٩٨٧.

٨. السديري، توفيق بن عبد العزيز، الإسلام والدستور، وكالة المطبوعات والبحث العلمي، وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، ط، ١، ١٤٢٥هـ.

٩. أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني ، سنن أبي داود، المكتبة العصرية، بيروت.

١٠. السهيلي، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله، الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق عمر عبد السلام السلامي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط،١، ٢٠٠٠.

١١. الشيخ صفي الرّحمان المباركفوري، الرحيق المختوم: بحث في السّيرة النبوية، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ٢٠٠٢.

١٢. الصبابطي عفيف، صحيفة المدينة دراسة حديثية وتاريخية، مقال في كتاب: صحيفة المدينة ومبادئها، وزارة الشؤون الدينية، تونس، ٢٠١٧.

١٣. الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد إبراهيم ، دار المعارف، مصر، ١٩٦٧.

١٤. عبد الوهاب الكيالى، الموسوعة السياسة ، الموسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة، ١٩٩٠.

١٥. كى بدوى، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، بيروت، مكتبة لبنان، ١٩٨٦.

١٦. محمد طاع الله، قيم المواطنة في صحيفة المدينة، مقال في كتاب: صحيفة المدينة ومبادئها، وزارة الشؤون الدينية، تونس، ٢٠١٧.

١٧. محمد عابد الجابري، العقل السياسي العربي، محدداته وتجلياته، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ١٩٩٠.

١٨. محمد عاطف الغيث، قاموس علم الاجتماع، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩.

١٩. أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٥٥.

٢٠. مصباح الشيباني،"صحيفة المدينة" وأبعادها "المواطنيّة،" دراسة سوسيو تاريخيّة للدين الإسلامي، مؤمنون بلا حدود، ١٠ جانفي، ٢٠٢٠، /https://www.mominoun.com

٢١. مونتجمري وات، محمد في المدينة، ترجمة شعبان بركات، منشورات المكتبة العصرية، بيروت.

٢٢. هشام جعيط، مسيرة محمد في المدينة وانتصار الإسلام، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، بدون تاريخ.

- Collier's Encyclopedia, Collier's, New York , vol,6, 1985.
- The World Encyclopedia (London: World), vol. 4, 2000.
- Encyclopedia Britannica Inc The New Encyclopedia , I Britannica , vol. 3 .2002 .

- Joh I. Cogan and Ray Derricott, citizenship for the 21 St century an international perspective on education, Kogan page, England, 1999.